

مسألة محيرة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعود بالله من شرور أنفسنا وسبيئات أعمالنا، ونسأله الهدية والتوفيق لأقوم طريق، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى الله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين. وبعد: فإن الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره هو أحد أركان الإيمان المشهورة، وبه يطمئن العبد، فيعلم أن ما أصابه لم يكن لি�صيبيه، ومع ذلك فإنه مأمور بفعل الأسباب، ومبشرة الأعمال لدینه ودنياه، حيث منحه ربِّه قوَّة في العمل وقدرة على مزاولته، وبهذه القدرة يتحصل على ما كتب الله له من الرزق في هذه الحياة، وبها يعمل ما يثاب عليه في الآخرة، أو يعاقب من الحسنات أو السُّبئات. وحيث إن هناك طائفة الجبرية الذين غلبوا جانب القدر، واحتلوا به على ما وقعوا فيه من المعااصي، فقد شا布وا المشركين الذين قالوا: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا أَبَاوْتَنَا} فرد الله عليهم بقوله: {فُلْ هَلْ عِنْدُكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} ولكن هؤلاء الجبرية إنما يحتاجون بالقدر على المعااصي، وفيهم يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- وعند مراد الله تفني كميته وعند مراد النفس تسدى وتلحم وعند خلاف الأمر تحتاج بالقضايا ظهيراً على الرحمن للجبر تزعم وبهذا يعرف تناقض هؤلاء الجبرية، فإن الاحتجاج بالقدر إنما هو بعد المصائب والوقائع؛ لقوله تعالى: {لَكِيلًا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَعْرُجُوا بِمَا آتَاكُمْ} فإن الإنسان مأمور بفعل أسباب الخير، والتوكى عن أسباب العطاب والضرر، وأخذ الحذر من أسباب الأمراض والعاهات، فلا يتردى من شاهق ولا يتعرض للسباع والهوام، ولا يسلم نفسه لأعدائه وهو يقدر على الامتناع، وعليه أن يتوقى البرد والحر وأسباب الأمراض والمصائب، ولا يتهور ويلقي بنفسه إلى التهلكة؛ فإن من أودى بنفسه أو أتلف ماله متعمداً مع قدرته على الإمساك فهو أقرب إلى وصف الجنون والخيال. ومن تعاطى أسباب الهاك كأكل السم وإتلاف المال، فإنه يجر عليه، ويمنع من التصرف، ولا يقبل احتجاجه بالقدر والكتابة العامة لكل ما يجري في الكون، فإن الله تعالى هو الذي قدر المقادير، ومع ذلك أمر العباد ونهاهم، وكلفهم، وفرض عليهم الفرائض، وحرم عليهم محرمات، ووعدهم على الامتثال بالثواب، وعلى العصيان بالعقاب. ولا شك أن هذا دليل التمكן والقدرة على مزاولة الأعمال، وقد قال تعالى: {قَاتَلُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعُتُمْ} فدلل على أن التكاليف مشروطة بالاستطاعة، وتسقط عند العجز، كما شرط الله في الحج الاستطاعة، وقال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ تَقْسِيَا إِلَّا وُسْعَهَا} . وقد كنت كتبت جواب سؤال لبعض من زعم الجبرة وسأله فهمه، وعand في الطاعة، واحتجاج بالقدر، وأشبهه الشيطان في قوله: {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي} وقد أجبته باختصار حسب ما يتضح به الصواب، وأحلت بالتفصيل على ما كتبه علماء الأمة وتوسعوا فيه، وناقشو فيه شبه المبطلين، وقد رغب إلي بعض الإخوة في نشره رجاءً أن يقنع به أهل العناد، فأذنت له في ذلك، وأضفت إليه تكملة من رسالة للشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله تعالى- من شرحه لقصيدة شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على الجبرية، وفي ذلك كفاية ومقنع لمن قصد الحق بالصواب. وأما من عاند وأصر على الاحتجاج بالقدر، فعلاجه أن يضرب وبجلد، وبصيق عليه، ويحتاج بالقدر، حتى تنقطع شبهته، والله أعلم وأحكم، وصلى الله على محمد وآلـه وصحبه وسلم. عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين